الجامع العتيق بغرداية (الجزائر)
نموذج للعمارة الإباضية

د.عبدالعزيز شهبي♦

الخصاص العامة :

على مسافة ستمئة كيلومتر ، جنوب مدينة الجزائر ، تقع منطقة وادي مزاب الصحراوية ، وهي مركز المذهب الإباضي في بلاد الجزائر ، وقد حافظ سكانها على تراثهم المعماري بشكل جيد ، مما جعل منظمة اليونسكو تعتبرها موقع تراث عالمي .
ويضم وادي مزاب سبع مدن أقامها الإباضية في العصر الوسيط ، من بينها مدينة غرداية عاصمة المنطقة ، والتي تأسست حوالي عام ٤٤٥هـ/١٠٥٣م أو قبل ذلك. ونظراً للهندسة المعمارية المميزة لهذه المدينة والحفاظ عليها ، قامت منظمة اليونسكو عام ١٩٨٢ بإدراجها ضمن المعالم التاريخية العالمية .
وعلى غرار مدن وادي مزاب ، فقد بنيت منازل مدينة غرداية بمواد محلية على مرتفع ، وبشكل هرمي ، رعيت فيه المنافع العامة للسكان ، وتم تشييدها حول الجامع الذي يهيمن على الحياة الدينية والاجتماعية ، ويشرف على المدينة ، وهو تعلوه مئذنة, زاد عدد درجاتها صعودا عن ١١٤ (عدد سور القرآن الكريم) . ويصنف هذا الجامع من بين أهم المعالم التاريخية في المنطقة .
إن الجامع العتيق بغرداية ، أو المسمى « الجامع الكبير» يمثل عقيدة دينية ، وأسلوب مجتمع ، ونمط عمارة ، فشيد بأبسط الوسائل المحلية والمتاحة في المكان كالحجارة والجص ، وجذوع النخل وجريده وسعفه . وذلك ليس نقصاً في المادة ، لكن هناك اقتصاد في التكاليف وبساطة في الأشكال ، والتزام البناة بمبادئ الإسلام
أقيم الجامع على جدران سميكة لتلطيف حرارة الصيف المحرقة , ويتوسطه الصحن ليدخل من خلاله الهواء والضوء ، ويلطف برد الشتاء الجاف . ويعتبر كل شيء في الجامع على مقدار حجمه المقصود ، حيث تتوزع الدعائم على مسافات تتلائم مع حركات المصلين وأوضاعهم . تلك هي القواعد التي قام عليها المبنى .
فالجامع هو بيت العبادة والخشوع ، ويعبّر عن التقوى في المذهب الإباضي الذي عرف بالشدة والصرامة، لذلك لم تعرف الزخرفة طريقها إليه منذ التأسيس . وهو رفض ناجم عن فكر زاهد في كل ما هو عديم الفائدة. وبقيت الهندسة المعمارية الأصيلة على حالها من البساطة ، ولكنها متميزة بالمهارة والعظمة ، ومؤثرة بدقة الانسجام ، وبراعة الجمال .

♦ أستاذ محاضر بالمدرسة العليا للأساتذة – بوزريعة – الجزائر.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ذلك أسلوب الزهد الصارم الذي أختص به الفن المعماري للجامع الإباضي ، قد انتشر في الصحراء ، ووصل إلى بلاد السودان الغربي ، لا سيما عن طريق التجار الإباضية ، حيث لوحظ التأثير المزابي في شكل المئذنة والمحراب ، وعدم وجود المنبر. وفي وقتنا , دخل هذا النمط المعماري في اهتمام المهتمين , ومهام الدراسات المعمارية وترميم أبنية سهل وادي مزاب.

الاباضية في المغرب.

ظهر المذهب الإباضي في القرن الأول الهجري في البصرة ، حيث أدّت سياسة بني أمية إلى قيام طوائف تنادي بتطبيق تعاليم الإسلام المبنية على المساواة والعدل، واتّباع الشورى لاختيار الإمام.فظهرت الإباضية التي نسبها الأمويين إلى عبد الله بن أباض المرّي التميمي, وهو تابعي عاصر معاوية وتوفي في أواخر أيام عبد المالك بن مروان. والتسمية تعود إلى مواقف عبد الله بن أباض الكلامية.

ويكون قد أختلف "عبد الله بن أباض" مع الخوارج في مسألة الخروج، حيث فضل "عبد الله" القعود عن الخروج للجهاد ضد بني أمية، فعرف الخارجون باسم الخوارج والقاعدون بالقعدة. ثم سرعان ما أصبحت للإباضية بعض الآراء التي تميزهم عن فرق الخوارج.

ويعتبر جابر بن زيد الأزدي العُماني المؤسس الفعلي للإباضية ، وكان عالما بالفقه. نفاه الحجاج بن يوسف إلى عُمان، لكنه عاد إلى البصرة وظل يعمل بها إلى أن توفي سنة ١١٣ هـ[١]. وخلفه تلميذه أبو عبيدة مسلم على إمامة الإباضية، فسجنه الحجاج مع بعض علماء الإباضية، ثم أفرج عنه في عهد سليمان بن عبد الملك. وعندما اقتنع أبو عبيدة مسلم بعدم المكين للمذهب في المشرق, فبعث أحد تلاميذه هو سلمة بن سعد إلى المغرب. وما أن وصل ابن سعد لِسرت بليبيا حتى راح المذهب ينتشر بين قبائل البربر, التي كانت ساخطة على عمال بني أمية[٢].

واتجه علماء إباضيون إلى البصرة، واحد منهم من اليمن وهو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري ، والباقون من المغرب وهم عبد الرحمن بن رستم الفارسي، وعاصم السدراتي، وأبو المنيب إسماعيل بن درّار الغدامسي، وأبو داود القبلّي النفزاوي. أخذ هؤلاء الطلبة الخمسة العلم على يد الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة مدة خمس سنوات من سنة ١٣٥ إلى ١٤٠ هـ، ثم اتجهوا جميعا عائدين إلى

---

(١)– أبو الربيع سليمان الباروني، مختصر تاريخ الأباضية، تونس١٩٣٨ ، ص ٢٩.

(٢)– محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، القاهرة ١٩٦٣ ، ج٢ ، ص ٣٩١...٤٠٠.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بلاد المغرب، بعد أن أوصاهم شيخهم بإعلان الإمامة إن أنسوا من أنفسهم قوة، وعقدها لأبي الخطاب[٣].

فاستقر حملة العلم بطرابلس التي كانت آنئذ في اضطراب وسخط على عمال بني أمية ثم بني العباس. وكان أول إمام الظهور في المغرب، هو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري ، وقد بايعه أصحابه بالإمامة في منطقة "صياد" قرب بلدة جنزور بطرابلس سنة ١٤٠ الهجري، وامتدت إمامته شرقا إلى برقة وغربا إلى القيروان وجنوبا إلى فزان.

ولعب أبو الخطاب دورا هاما في سياسة المنطقة, حيث كانت ثورة البربر على الظلم والجور, وخروجهم على السلطة الحاكمة[٤], فاختار عبد الرحمن بن رستم قاضيا في طرابلس. وعندما احتلت قبيلة ورفجومة الصفرية الخارجية القيروان وارتكبت بها المناكر, هاجمها أبو الخطاب بجيشه سنة ١٤١ هـ, وهزمها وشتت شملها وقتل قائدها، وحرر القيروان من الصفرية وولى عليها عبد الرحمن بن رستم ، وحينها امتد انتشار الاباضية نحو الغرب[٥]. (أنظر الخريطة رقم ١)

لمّا أشتدّت شوكة الإباضية في المغرب, وضع الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور جيشا قويا تحت قيادة والي مصر محمد بن الأشعث الخزاعي, ووجهه نحو المغرب. فهجم ابن الأشعث على أبي الخطاب وقتله في معسكره بطرابلس, وانهزم الإباضية سنة ١٤٤ هـ . وكان عبد الرحمن بن رستم متجها لنجدة أبي الخطاب وعندما علم باستشهاده، تراجع واتجه نحو المغرب الأوسط[٦].

الدولة الرستمية الاباضية في المغرب الأوسط

نشأت الدولة الرستمية الاباضية فى المغرب الأوسط (الجزائر)، وتنسب إلى مؤسسها "عبد الرحمن بن رستم الفارسي" الاباضي . كان عبد الرحمن بن رستم واليا على القيروان في إمامة أبي الخطاب ، ولكنه بعد مقتل الإمام سنة ١٤٤ هـ اضطر للفرار من ملاحقة الجيش العباسي بقيادة ابن الشعث له ، فتوجه إلى المغرب الأوسط بصحبة ابنه عبد الوهاب، وظل سائرا بين القبائل الاباضية متخفيا سالكا طريق الغرب إلى أن وصل جبل يدعى " سوفجج " فتحصن به. وظل عبد الرحمن بن رستم ينشر مذهبه بين أنصاره من القبائل البربرية, الذين التحقوا به والتفوا حوله, حتى إذا اجتمع

---

(٣)– جمعية التراث, معجم أعلام الإباضية – قسم المغرب، القرارة ، الجزائر ١٩٩٣.

(٤)– حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، القاهرة ١٩٦٤ ، ج ٢، ص ٢٠٧.

(٥)– موسى لقبال, المغرب الإسلامي, مطبعة البعث– قسنطينة ١٩٦٩, ص ٢٢٤–٢٢٥.

(٦)– محمد علي دبوز، المرجع السابق , ج٣ ,ص ٣...١٩.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حوله من أهل العلم والصلاح ، ووجد نفسه قادرا على الشروع في بناء دولته[٧], اتجه نحو موقع " تيهرت " التي تبعد عن مدينة الجزائر بحوالي ٤٣٠ كلم في اتجاه الجنوب الغربي.وشرع الاباضيون في بناء عاصمتهم في نهاية ١٥٥ وبداية ١٥٦ للهجرة. (أنظر الخريطة رقم ٢).

ولمّا استأنس الإباضية من أنفسهم قوة لإعلان إمامة الظهور، فنظروا لمن يتولى الأمر فلم يجدوا أليق ولا أبرز من عبد الرحمن بن رستم لسابقته ودينه وعلمه ، فتمت له البيعة بالإمامة سنة ١٦٠هـ/٧٧٧م[٨]. وقامت الدولة الرستمية التى صارت ملجأ لأتباع الذهب الإباضي, ونجح عبد الرحمن بن رستم فى توطيد دعائم دولته خلال الفترة التى حكمها. وفي سنة ١٧١هـ خلفه من بعده ابنه عبد الوهاب الذى بقى فى حكم الدولة الرستمية مدة أطول، ثم "أفلح بن عبد الوهاب" الذى حكم مدة خمسين عامًا (٢٠٨-٢٥٨هـ)، ثم تتابع في حكم الدولة الرستمية خمسة من الأئمة، هم: أبوبكر بن أفلح(٢٥٨- ٢٦٠هـ)، وأبو اليقظان(٢٦٠-٢٨١هـ)، فأبو حاتم، ويعقوب ابن أفلح، إلى آخر إمام وهو اليقظان ابن أبى اليقظان(٢٩٤- ٢٩٧هـ) [٩].

امتدت حدود الدولة الرستمية من طرابلس شرقا إلى مدينة تلمسان في أقاصي المغرب الأوسط غربا.

واشتهرت هذه الدولة بنظام الشورى ، وبعدالة أئمتها نزاهتهم ، وصلاحهم وتقواهم وعلمهم ، وبازدهارها ، وقد كان يعيش تحت ظلها أتباع مذاهب إسلامية لأخرى ، وكانت لهم مساجدهم ودروسهم وحلقاتهم الخاصة. وذلك إن مذهب الإباضية تتوفر فيه كثير من جوانب الاعتدال في العقيدة, والتي تتفق في الكثير مع أهل السُّنَّة[١٠].

ازدهرت مدينة تيهرت عاصمة الدولة الرستمية حتى صارت ملتقى للتجَّار والعلماء والطلبة من جميع أنحاء العالم الإسلامي؛ مما جعل ابن الصغير يصفها بقوله: « ليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته وأمانة على ماله ونفسه ، حتى لا ترى

---

(٧)-أبو بكر عبدالله المالكي, رياض النفوس , مكتبة النهضة المصرية , القاهرة ١٩٥١, ص ١٠.

(٨)- أبو العباس أحمد الدرجيني , كتاب طبقات المشائخ بالمغرب , مطبعة البعث, قسنطينة١٩٧٤, ص ٤٠...٤٢.

(٩)- إبراهيم بحاز بكير ، الدولة الرستمية ، نشر جمعية التراث-القرارة ، الجزائر ١٩٩٣, ط٢ , ص ١١٠...١٢٨ .

- إبراهيم بحاز بكير ، المرجع نفسه , ص ٣٣٠...٣٤٠.

(١٠)- محمد علي دبوز، المرجع السابق , ج٣ ,ص ٣٢٠...٣٦١ .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

دارا إلا قيل هذه لفلان الكوفي ، وهذه لفلان البصري ، وهذه لفلان القروي ، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم ، وهذا مسجد البصريين ،وهذا مسجد الكوفيين »[١١].

في سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م هجم عليها أبو عبد الله الشيعي داعية الفاطميين ، فدمرها وعاث فيها فسادا، وقتل أهلها ، ولم يكتف بذلك ، بل قام بإحراق مكتبة المعصومة بعد أن أخذ منها الكتب العلمية[١٢].

نزوح الاباضية إلى وادي مزاب

كان المذهب الإباضي منتشراً في منطقة ورقلة (بني ورجلان على بعد ٨٠٠ كيلومتر جنوب شرقي مدينة الجزائر) قبل سقوط الدولة الرستمية, و بعد سقوطها لجأ عدد من وجهاء هذا المذهب وأتباعه جنوباً إليها. وأصبحت مدينة ورقلة معقلا من معاقل الإباضية, وبرز الاباضيون في الحياة الاقتصادية و الفكرية, لاسيما قبل نزوح أعداد كبيرة منهم إلى قرى وادي مزاب[١٣].

وعلى بعد أربعة عشر كيلومترًا جنوبي ورقلة, خطط الاباضيون عاصمتهم الجديدة وهي سدراتة، التي عرفت في القرنين العاشر و الحادي عشر الميلاديين ازدهاراً كبيرا, فأنشأوا فيها حضارة عظيمة, وأقاموا نظاماً محكما, وشيدوا قصوراً بديعة ومنازل رفيعة, وغرسوا بساتين ومزارع معتبرة[١٤].

غير أنّ الاضطرابات والفتن التي عرفتها المنطقة في فترات لاحقة ، نتيجة النزاعات والملاحقات السياسية والمذهبية، جعلت الكثير منهم ينزح إلى منطقة وادي مزاب(٢٠٠ كيلومتر شمالاً) بعد تأسيس قراها السبع. (أنظر الخريطة رقم ٢)

تقع منطقة وادي مزاب بنحو ٦٠٠ كيلومتر بجنوبي مدينة الجزائر, في ناحية تسمى الشبكة نظرًا لشبكة من أودية عديدة تتخللها[١٥]. وهي عبارة عن نجد حولها بنو مزاب إلى بساتين ومزارع، وأسسوا فيها سبع مدن، خمسة منها متجاورة: وهي

---

[١١]–ابن الصغير ، أخبار الأئمة الرستميين ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٨٦م , ص ٣٦

[١٢]–إبراهيم بحاز بكير ، المرجع السابق , ص ١٢٨.

[١٣]– محمد بلغراد:«الحركة الاباضية في تاهرت وسدراتة وغرداية», مجلة الأصالة, وزارة الشؤون الدينية, الجزائر١٩٧٧,عدد٤١, خاص بتاريخ ورقلة– سدراتة, ص ٤٦.

– عبد الرحمن الجيلالي:«أبو يعقوب يوسف الورجلاني وكتابة الدليل والبرهان», مجلة الأصالة, المرجع نفسه, ص ١٦٢– ١٦٣.

[١٤]رشيد بورويبة,مدن مندثرة : تاهرت, سدراتة,...,وزارة الإعلام والثقافة– الجزائر١٩٨١,ص٤٥

[15] -ROCHE Manuelle ; Le M'ZAB architecture ibadite en Algérie,librairie Arthaud, Paris 1973, p. 44 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العطف(عام٤٠٢هـ/١٠١٢م)،وبنورة(عام٤٣٧هـ/١٠٤٦م)،وغرداية(عام٤٣٩هـ/١٠٤٨م)، وبني يزقن(عام٧٤٧هـ/١٣٤٧م)، ومليكة (عام٧٥٠هـ/١٣٥٠م), واثنتان تبعدان عن المجموعة, وهي مدينة القرارة (عام١٠٤١هـ/١٦٣١م) التي تبعد ب١١٠ كيلومترات في شمال الشرقي، ومدينة بريان(عام١١٠٢هـ/١٦٩٠م) التي تبعد ب٤٥ كيلومتر شمالا[١٦]. (أنظر الخريطة رقم ٣)

حسب "ابن خلدون"[١٧] أن سم مصاب (وهو مزاب) يرجع إلى القوم الذين استقروا في وادي مزاب, وهم من البربر, وانضاف إليهم قبائل أخرى من زناتة كانت موجودة في المنطقة قبل بني رستم وهم اباضية. وإلتجأت عائلات من تيهرت إلى وادي مزاب بعد سقوط الدولة الرستمية, ثم قدمت هجرة إباضية من وارجلان قبل تخريب سدراتة[١٨].

تمسك بنو مزاب بمذهبهم الإباضي ، وتقاليدهم وهندستهم المعمارية الأصيلة. لقد بنوا قرى فوق مرتفعات وعرة بطريقة فنية جميلة. (أنظر الصورة رقم ١)

وعلى غرار جميع مدن وادي مزاب, يعلو غرداية الجامع الذي يشرف على المدينة، وشيدت حوله البيوت بشكل هرمي[١٩], واستعمل في بنائها مواد محلية، كالحجارة والأخشاب والسعف والجريد. (أنظر الصورة رقم ٢)

النمط المعماري للجامع العتيق بغرداية

بمرور الزمن شهد الجامع العتيق بغرداية ترميمات وإصلاحات وتوسيعات غيّرت من شكله وتصميمه, ولكنها لم تمس كثيرا الطراز المعماري [٢٠].

وحسب الدراسة الميدانية التي قادتني إليه عام١٤٠٣هـ/١٩٨٢م، وقفت على ما يلي :

---

(١٦)– مكتب الدراسات المعمارية وترميم أبنية سهل وادي مزاب –غرداية– (الواحات).

(١٧)–عبد الرحمن بن خلدون, تاريخ بن خلدون, دار الكتاب اللبناني, بيروت ١٩٧٨, ج ٧,ص١٢٨.

(١٨)– عبد الرحمن الجيلالي, تاريخ الجزائر العام,دار مكتبة الحياة, بيروت١٩٦٥,ج١,ص ٢٣٤...٢٣٧ .

(19)- ROCHE ; Le M'ZAB, op.cit., pl. 13 – 24 .

(20) MERCIER M. ; La civilisation urbaine au M'Zab, Alger 1922, pp. 18-19 imprimerie Emile Pfister,

–BONET Y. ; «Notes sur l'architecture religieuse au M'Zab», Cahier des Arts et techniques d'Afrique du Nord n° 6, Edition Privat, Toulouse 1960-1961, pp. 93-95

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

١ – **التخطيط العام :**

يتكون الجامع العتيق بغرداية من جزأين, أحدهما يمثل الجامع سابقا, والأخر يمثل الإضافات إلى غاية السبعينيات من القرن العشرين. وأثناءها قام «مكتب الدراسات المعمارية وترميم أبنية سهل وادي مزاب–غرداية–(الواحات)» بوضع تصميم تقني شامل ومفصل لأجزاء الجامع. (أنظر المخطط رقم ١)

ولتيسير وصف الجامع, والتطرق إلى مراحله وأجزاءه المختلفة, تطلب مني رسم المسقط الأفقي وفق ما تقتضيه الدراسة.

أ– **تخطيط الجامع سابقاً:**

ظهر الجامع على شكل غير منتظم, عمقه أطول من عرضه ، إذ يبلغ طوله ٢٧ م ، وعرضه ٢٢،٥ م. وأشتمل على:

*–قاعة صلات مستطيلة الشكل, عمقها ٧ م, وعرضها ١٤ م, تحتوي على محراب مجوف, وأربع بلاطات (أروقة) موازية لحائط القبلة، تنحصر بين ثلاثة صفوف من الدعائم والعقود, وتقاطعها سبع بلاطات (أروقة) عمودية ، تنحصر بين ستة صفوف من الدعائم والعقود. ولها ثلاثة مداخل. وهي في مقدمة الجامع, وبجزئه الأسفل, وتوجد فيها حجرة بالزاوية الجنوبية طولها ٤م, وعرضها ٣ م.(أنظر المخطط رقم ٢)

*– صحن مكشوف, مربع التخطيط, مقاساته ٦ م × ٦ م. وهو يتوسط الجامع, على الحائط الغربي لقاعة الصلاة. ويحيط بالصحن رواق من ثلاث جهات, فمن الناحية الشمالية يبلغ طوله٦،٥ م وعرضه ٥ م, ويحتوي على ثلاث بلاطات موازية للقبة, وبلاطتين عموديتين, ومن الناحية الغربية فلا يحتوي على بلاطات, ويبلغ طوله ١٨ م وعرضه ٢،٥ م, ومن الناحية الجنوبية يبلغ طوله ٩ م وعرضه ٥ م, ويحتوي على ثلاث بلاطات موازية للقبلة, وأربع بلاطات عمودية. ويدخل إلى هذا الصحن من أربع جهات. (أنظر المخطط رقم ٢)

*– المئذنة, وسلّم, وقاعة كبيرة طولها ٨ م وعرضها ٧ م بأربع بلاطات موازية للقبلة وثلاث بلاطات عمودية. ويقع كل ذلك في مؤخرة الجامع. (أنظر المخطط رقم ٢)

ب– **تخطيط الجامع الموسع:**

أخذ الجامع شكل مثلث غير منتظم ، يبلغ طول ضلعه من جهة القبلة ٤٤ م ، ومن ناحية الشمال ٣٧ م, والضلع الثالث غير منتظم طوله ٦١ م. أما الجدران فيبلغ سمكها

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٤٣ سم، ولقد بنيت بالحجارة والجـص، وعليها ملاط الجص, وهي مواد بناء محلية ميزت عمران المنطقة كلها[٢١]. (أنظر المخطط رقم ٣)

٢ – قاعة الصلاة :

تتجه قاعة الصلاة نحو الشرق ، وهي تتقدم الجامع ، تخطيطها شبه مستطيـل غيـر منتظم ، يبلغ عمقه ١٦ م ، وعرضه ٣٨ م ، ويصل ارتفاعها إلى ٢،٥ م .

تنقسم قاعة الصلاة إلى قسمين, أحدهما سابق والآخر مستحدث, يميّز بينهما محراب سابق. فالقسم السابق مستطيل الزوايا,يحتوي على ثلاث بلاطات (أروقة) موازية لحائط القبلة, عرض كل واحدة منها ١،٥ م، وتنحصر بين صفين من الدعائم والعقود، وتقاطعها اثنتا عشرة بلاطة (أروقة) عمودية, عرض كل واحدة منها ٢ م، وتنحصر بين أحد عشر صفاً من الدعائم والعقود.

أما القسم المستحدث فيبلغ عرض كل رواق فيه ٢ م, وهو يتميّز بجزأين, أحدهما معقود يشتمل على أربع بلاطات (أروقة) ، موازية لحائط القبلة ، وتنحصر بين ثلاثة صفوف من الدعائم والعقود، وتقاطعها إحدى عشرة بلاطة (أروقة) عمودية ، تنحصر بين عشرة صفوف من الدعائم والعقود ، وهي غير متساوية الأطوال .

أما الجزء الثاني من هذا القسم فلا تعلوه عقود, وهو يشتمل على خمسة أروقة، موازية لحائط القبلة ، بما فيها رواق المحراب, وهي تنحصر بين أربعة صفوف من الدعائم، وتقاطعها ثمانية أروقة عمودية ، تنحصر بين سبعة صفوف من الدعائم ، وهي غير متساوية الأطوال كذلك .

وتحتوي قاعة الصلاة على أربعة أبواب، يبلغ عـرض كـل واحـد منهـا ٠،٨٠ م، وارتفاعه ١،٨٠ م .يوجد باب منها في الناحية الشمالية يفضي إلى الميضأة. بينما توجد الثلاثة أبواب الأخرى في الجهة الغربية، تفتح على الصحن.(أنظر المخطط رقم٣) .

٣ – الصحن :

يتوسط الجامع, على الحائط الغربي لقاعة الصلاة, صحن مكشوف, وهو مستطيل الزوايا, عمقه أقل من عرضه ، حيث يبلغ عمقه ٦ م ، وعرضه ١٣ م.

ويحيط بالصحن رواق من ثلاث جهات, فمن الناحية الشمالية يـساوي عمقـه ٨ م, وعرضه يبلغ ٣،٥ م, ويحتوي على أربع بلاطات موازية للقبة, وبلاطتين عموديتين. ومن الناحية الغربية يحتوي الرواق على بلاطة واحدة موازية للقبة, يبلغ عمقهـا ٢ م, ويساوي طولها عرض الصحن. ومن الناحية الجنوبية يبلغ عمق الرواق ٧ م, ومتوسط

---

(٢١) –بورويبـة–الـدكالي:المـساجد فـي الجزائـر, الـشركة الوطنيـة للنـشر والتوزيـع, الجزائر١٩٧٠,ص٩٢–٩٣.

– PAVARD Claude: Lumières du M’Zab, S.N.E.D. Alger 1973, p.88-89.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عرضه ١١ م, إذ هو على شكل مستطيل منحرف, ويحتوي على ثلاث بلاطات موازية للقبلة, وأربع بلاطات عمودية.
ويتوفر هذا الصحن على أربع مداخل من الخارج, أحدها يفتح في الحائط الشمالي, وثلاثة مداخل تفتح في الحائط الغربي على ممر, ويبلغ عرض كل واحد منها ١،٣٠ م ، وارتفاعه ٢ م . بالإضافة إلى ثلاثة أبواب بين الصحن و قاعة الصلاة. (أنظر المخطط رقم ٣)

٤ – المباني الإضافية:

– **قاعة أولى داخلية:** تحتل الزاوية الجنوبية–الغربية من قاعة الصلاة, وهي ذات شكل رباعي الأضلاع منحرف, يبلغ متوسط مقاساتها ٨×٨ م , ولها مدخل من الخارج. وتستعمل هذه القاعة عادة للدراسة والتعليم.

– **حجرة:** تقع إلى الزاوية الشمالية–الغربية بخارج الصحن, ولها مدخل من الصحن, وهي مستطيلة التخطيط , يبلغ عمقها ٤ م, وطولها ٧ م .

– **قاعة ثانية خارجية:** توجد خارج الجامع من الجهة الغربية, وتخطيطها مربع الزوايا منتظم, إذ يبلغ عمقها ٧،٤٠ م, وعرضها ٧ م , ولها مدخل من ناحية المئذنة. ويفصل هذه القاعة عن الصحن ممر, يبلغ عرضه ٣ م, وطوله ٢٥ م, كما يفصلها عن المئذنة ممر يبلغ عرضه ١،٥ م, وطوله ٨ م. (أنظر المخطط رقم ٣)

٥ – الميضأة :

تحتل الميضأة الركن الشمالي–الشرقي لقاعة الصلاة، وهي ذات تخطيط غير منتظم، يبلغ عرضها ٩ م, وطولها ١٢ م، وبنيت على مستوى منخفض ، ويفضي إليها من مدخلين أحدهما نحو الخارج, والآخر نحو قاعة الصلاة . (أنظر المخطط رقم ٣)

٦ – وسائل الدعم :

أ – الدعائم المربعة[٢٢]:

يعتمد السقف والعقود في قاعة الصلاة على دعائم مربعة الزوايا, وهي تتوزع على النحو التالي:

– في مؤخرة قاعة الصلاة, وهو الجزء السابق في البناء, تقوم ثلاثة صفوف منتظمة من الدعائم موازية لجدار القبلة, تشتمل في كل صف منها على إحدى عشرة دعامة, يبلغ عرض أضلاعها ٠،٤٣ م × ٠،٤٣ م, وارتفاعها ١ م.

– في الجزء المحصور بين المحرابين(القديم والجديد),تقوم أربعة صفوف منتظمة من الدعائم موازية لجدار القبلة,تشتمل في كل صف من الثلاثة الأمامية على خمس دعائم, وسبع دعائم في الصف الرابع الخلفي,وهي بنفس الأطوال كالسابقة.(أنظر الصورة ٣)

[٢٢]– كلود بافار, أضواء مزاب, المرجع السابق, ص ١٠٤–١٠٥.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

– في الجزء الجنوبي من قاعة الصلاة, وهو آخر إضافة للجامع, تقوم أربعة صفوف من الدعائم موازية لجدار القبلة, وهي تقابل الصفوف السابقة, وتحتوي على سبع دعائم في كل صف من الصفين الأماميين, وست دعائم في الصف الثالث خلفهما, وخمس دعائم في الصف الرابع بالمؤخرة, يبلغ عرض أضلاعها ٠،٤٨ م × ٠،٣٠ م , وارتفاعها ١ م. (أنظر الصورة ٤)
وجميع الدعائم تعلوها أكتاف, ولا تتوجها تيجان .

ج – **الدعائم الحائطية :**
تظهر في قاعة الصلاة أربع دعائم حائطية من الناحية الغربية, بجدار الميضأ، وثلاث أخرى بالجدار الجنوبي ، وهي تقابل صفوف الدعائم ، ويبلغ نتوؤها ٠،٢٠ م، وعرضها يساوي عرض الدعائم المقابلة لها.
ولقد بنيت الدعائم جميعها بنفس مواد البناء التي بني بها الجامع.

الدعائم المضلعة :
لرفع العقود والسقف,تقوم في أروقة الصحن دعائم على شكل أعمدة ذات اثني عشر ضلعا،يبلغ محيطها١،٢٠م،وارتفاعها١،٨٠م،بما فيها القواعد والأكتاف, وبنيت بالحجارة والجص،وملاطها كذلك من الجص،ويبلغ عددها١٨دعامة.وهي تتوزع على أكثر من أربعة صفوف منتظمة,منها صفان عموديان للقبلة بثلاث دعائم لكل صف في الإيوان الشمالي,وصف موازي للقبلة بثلاث دعائم في الإيوان الغربي,وصف عمودي للقبلة بثلاث دعائم وست دعائم أخرى مبعثرة في الإيوان(الرواق)الجنوبي.(أنظر الصورة٥)

د – القواعد:
لا ترتكز الدعائم في قاعة الصلاة على قواعد,باستثناء دعائم أروقة الصحن التي ترتكز على قواعد مربعة الزوايا,يبلغ عرضها٠،٥٠م,وارتفاعها كذلك٠،٥٠م.(أنظر الصورة ٦)

ه– الاكتاف :
لا توجد التيجان بين الدعائم والعقود ، وإنما على رؤوس جميع الدعائم, بنيت أكتاف تتفرع نحوى الأعلى لحمل العقود,ويبلغ ارتفاعها ٠،٢٥ م.(أنظر الصورة ٧)

و– **العقود :**
لحمل السقف, وعلى دعائم قاعة الصلاة تعلوها عقود نصف دائرية[٢٣], يبلغ ارتفاعها ٠،٩٠ م . (أنظر الصورة ٨)
وعلى دعائم أروقة الصحن تعلوهاعقود منخفضة,يبلغ ارتفاعها٠،٥٠م.(أنظرالصورة ٩)

(23) ROCHE ; Le M'ZAB, op.cit., pp.75…80 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ما عدا في الجزء الجنوبي من قاعة الصلاة, وهو آخر إضافة للجامع, فبدل العقود, بنيت جدران علوية,لتكون قواعد السقف الخشبي[٢٤], يبلغ ارتفاعها ٠،٩٠ م

٧ – القباب والسقف :

إن أروقة الصحن و قاعة الصلاة تغطيها قباب نصف كروية, تنتقل من المنطقة المربعة إلى الرقبة الأسطوانية مباشرة بواسطة ركنيات غير بارزة ثم القبة المستديرة. وكل قبة تساوي أطوالها البائكة التي تعلوها .

ما عدا الجزء الجنوبي من قاعة الصلاة, الذي لا تتوفر فيه العقود, فسقفه من الخشب[٢٥]. حيث سطح هذا الجزء يستقبل المصلين في أيام الصيف الحارة، في صلوات الفجر والمغرب و العشاء. (أنظر الصورة ١٠)

٨ – المحاريب :

وجد في الجامع سابقاً محرابان, أحدهما في قاعة الصلاة, والآخر في الصحن حيث كان كذلك يستعمل للصلاة في أوقات الحر. وبعد توسيع قاعة الصلاة, أصبحت تضم محرابين أحدهما قديم والآخر جديد.

– **المحراب القديم:** يتوسط قاعة الصلاة, ويفصله عن حائط مؤخرتها ثلاث بلاطات.وهو مجوف ، ويتجه نحو الشرق ، وكوته نصف اسطوانية معقودة بعمق ٠،٩٠ م ، وعرض ٠،٨٠ م ، وارتفاع ١،٧٠ م . وتنقسم كوة المحراب إلى قسمين : قسم أعلى ، وآخر أسفل ، فالقسم العلوي تكلله نصف قبة ، ويبلغ ارتفاعه ٠،٥٧ م ، أما القسم السفلي فيبلغ ارتفاعه ١،١٣ م . ويظهر القسمان أملسان ، يقصلهما ملاط الجص. (أنظر الصورة ١١)

– **المحراب الجديد:** يتوسط جدار القبلة, وهو مجوف ، ويتجه نحو الشرق ، وكوته نصف اسطوانية معقودة بعمق ١ م ، وعرض ٠،٩٦ م ، وارتفاع ١،٧٥ م . وتنقسم كوة المحراب إلى قسمين : قسم أعلى ، وآخر أسفل ، فالقسم العلوي تكلله نصف قبة ، ويبلغ ارتفاعه ٠،٤٣ م ، أما القسم السفلي فيبلغ ارتفاعه ١،٣٢م .وتزين المحراب حشوة, تحيط بكل الإطار. بينما يظهر الملاسة على كل المحراب الذي يقصله ملاط الجص[٢٦]. (أنظر الصورة١٢)

---

[٢٤]– المساجد في الجزائر, المرجع السابق, ص٩٥ .

[25] L'Architecture algirienne ; ministère de la culture, S.N.E.D.1974, 2è éd., p.59 .

[٢٦]– كلود بافار, أضواء مزاب, المرجع السابق, ص٩٠.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وخلو المحراب من أي زخرفة يعود إلى البساطة و التقشف و الابتعاد عن كل ما قد يشغل المصلي عن الخشوع في عبادته, ورعي ذلك في جميع أجزاء الجامع, ومن ذلك أيضاً عدم وجود المنبر في الجامع.

١٠-المئذنة:

تنتصب المئذنة في الركن الشمالي الغربي من الجامع، وتظهر على شكل هرمي مقطوع, ببدن واحد ذي قاعدة مربعة, ومكلل بشرفة تتوجها رؤوس في الزوايا الأربع. (أنظر الصورة ١٣)

ويضيق مربع المئذنة من الأسفل إلى الأعلى ، وهي بسيطة ، سميكة الجدران ، مرتفعة ، إذ يبلغ ارتفاعها الإجمالي ٢٢ مترا ، وضلعها من الخارج ٦ أمتار في القاعدة ، و٢ م في القمة، ويتناقص سمك جدرانها من متر واحد إلى ٣٠ سم. أما مدخلها فهو في ممر يؤدي إلى الصحن.

ومن الداخل ، تشتمل المئذنة على نواة مركزية ومربعة ، يلتف حولها سلم ، يبلغ عدد درجاته ١٢٢ درجة،أما ضلع المئذنة من الداخل فيساوي٤م عند القاعدة ، و ١،٤٠ م في القمة.ولقد بنيت هذه المئذنة بالحجارة والجص ، كبقية أجزاء الجامع الأخرى .

ومن ناحية الزخرفة ، تتميز المئذنة بالبساطة ، ولكنها في غاية الأناقة والجمال والتناسق الفني ، فتحليها نوافذ على شكل عقود نصف دائرية لتضيء السلم ، ورؤوس تحتل الأركان الأربعة لقمة المئذنة[٢٧]. (أنظر الصورة ١٤)

١١ – الزخرفة :

لم تعرف الزخرفة طريقها إلى الجامع منذ التأسيس . وبقيت الهندسة المعمارية الأصيلة على حالها من البساطة ، ولكنها متميزة بالمهارة والعظمة ، ومؤثرة بدقة الانسجام ، وبراعة الجمال[٢٨]. (أنظر الصورة ١٥)

لقد عرف المذهب الإباضي بأسلوب الشدة والصرامة والزهد ، فأخصه عمارة الجامع الذي هو بيت العبادة ، ويعبر عن التقوى والخشوع[٢٩].

وحتى واجهات الجامع لا تزينها الزخرفة,ما عدا النوافذ المعقودة التي تكون على هيئة زخرفة جميلة،تكسر فراغ الجدران,وشريط القرميد الذي يحلي أعلاها.(أنظرالصورة ١٦)

---

(٢٧)– كلود بافار, أضواء مزاب, المرجع نفسه, ص ٢١, ٧٨, ٩٠, ٩٩.

- L'Architecture algirienne : op.cit., p.63.

(٢٨)– ظهور أهمية الطراز المعماري في المساجد المغربية الأصيلة (أنظر) حسين مؤنس : المساجد ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨١ ، ص ص ٢١٤ – ٢٣٣.

(٢٩)– كلود بافار, أضواء مزاب, المرجع السابق, ص ٧.

– المساجد في الجزائر, المرجع السابق, ص ٨٨, ٩١.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

خاتمة

حافظ الجامع العتيق بغرداية منذ تأسيسه على الأصول الأولى للشخصية الإسلامية إلى حد ما ، مما أضفى على الطراز المعماري أصالة خاصة ، وجعله يتطور داخل نطاق الخصائص المميزة لكل جزء من أجزاء المبنى ، حسب ما تقتضيه معطيات المنطقة وظروفها .

إن النمط المعماري للجامع العتيق بغرداية ، نمط بسيط ، ولكنه يعبر عن إسلام صاف ، خال من البذخ وكثرة التكلف والتفنن في البناء والزخرفة . وهو طراز يقتصر على الحد الأدنى من عناصر عمارة المساجد .

إن منطقة وادي مزاب الصحراوية ، وهي مركز المذهب الإباضي بالجزائرية, تعتبر من أكثر المناطق أصالة ودلالة على الشخصية الإسلامية ، ففيها تقوم المساجد البسيطة الأصيلة ، التي تعتبر نمطا خاصا من أنماط المساجد الإسلامية . ورغم الترميمات وإعادة بناء المساجد والتوسيع،إلا أنها ظلت محتفظة بهيئتها البسيطة التي ترجع إلى العصور الإسلامية الأولى،على غرار مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة. ومن هذه الناحية،فهي مساجد رائعة ،تُسَكّن النفس بهيئتها وبساطتها .

ورغم أن عمارة الجامع العتيق بغرداية لم تكلّف الكثير من التفنن في البناء، إلاّ أنها رائعة بهيئتها وبساطتها. وهي الميزة التي اختصت بما يلي:

- التركيز على قاعة الصلاة ، والاهتمام بتخطيطها, وإضافة الصحن.
- تمييز الجدران بالسماكة، واغشائها بطبقة سميكة من ملاط الجص.
- جعل العقود نصف دائرية أو منخفضة، وتقوم على دعائم من الحجارة.
- تسقيف قاعة الصلاة والايوانات بالقباب المنخفضة وأخشاب النخيل.
- تجويف المحراب وتبسيطه ، وإهمال جميع أشكال الزخرفة.
- بناء المئذنة على هيئة برج ببدن مربع ، مرتفع ، سميك الجدران ، وينتهي بشرفة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

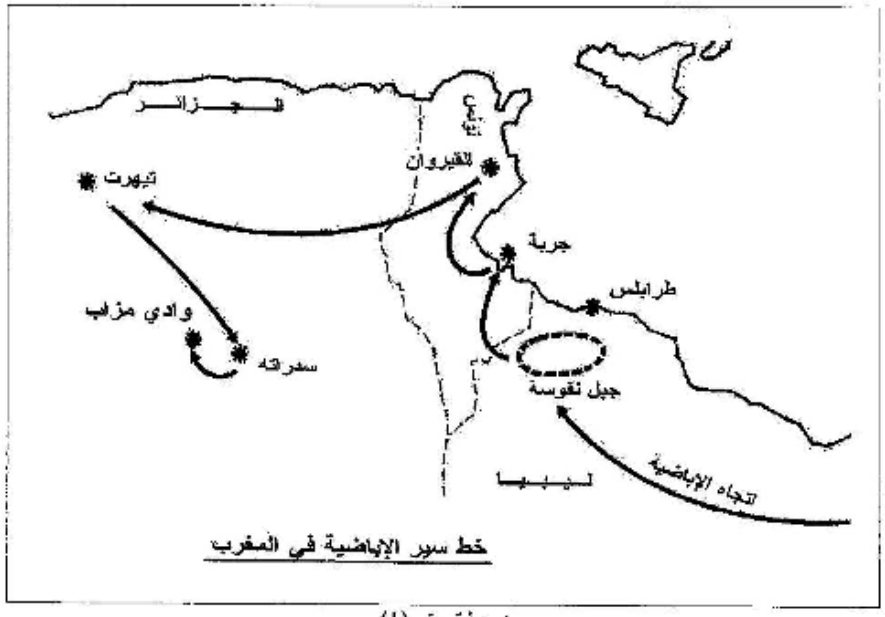

خريطة رقم (1)

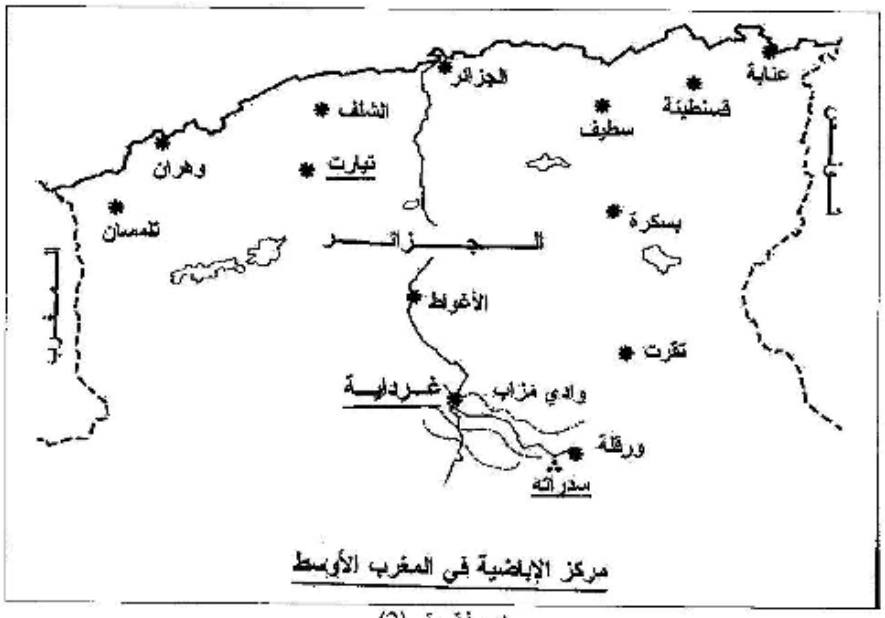

خريطة رقم (2)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

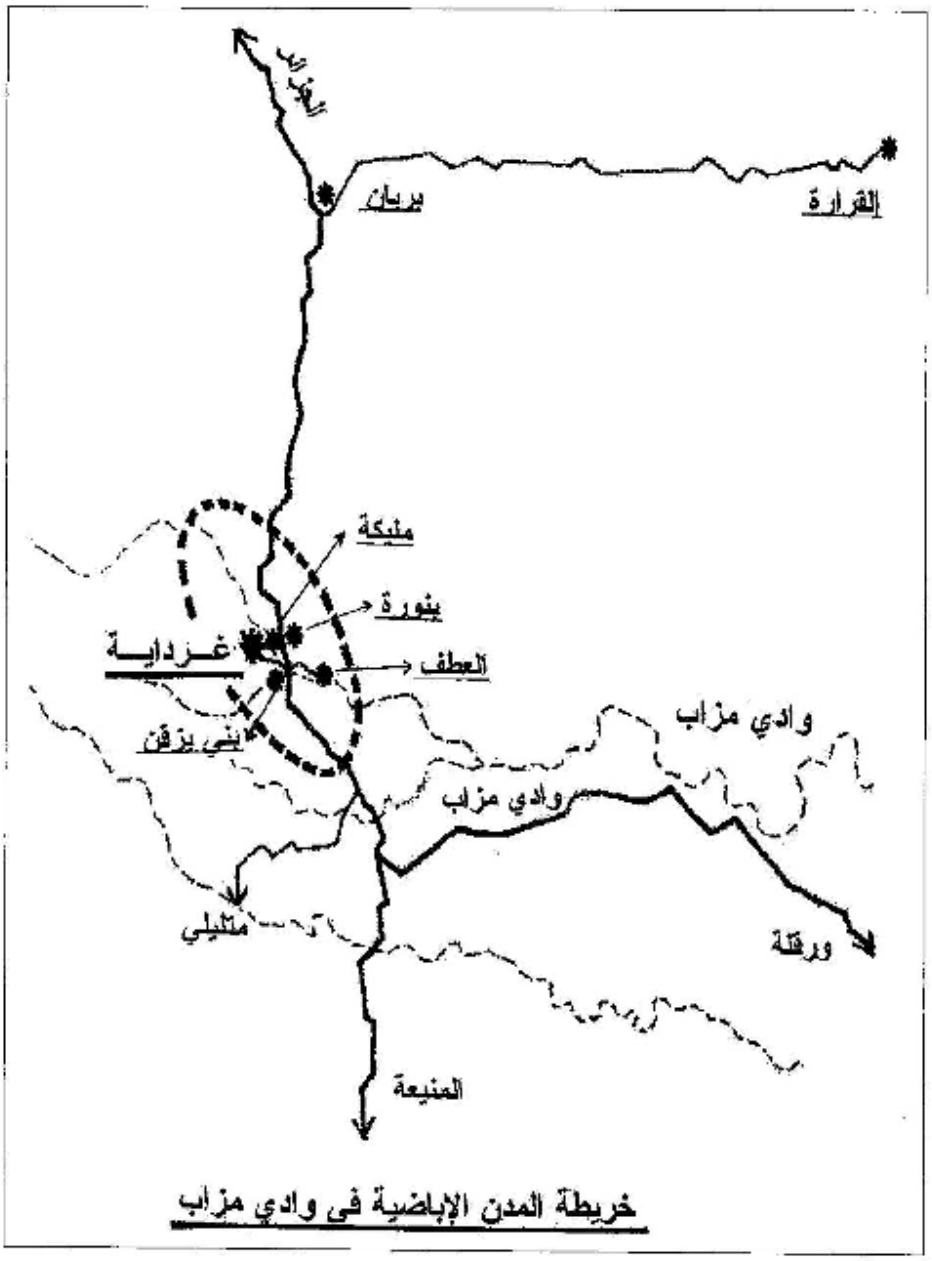

خريطة رقم (٣)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

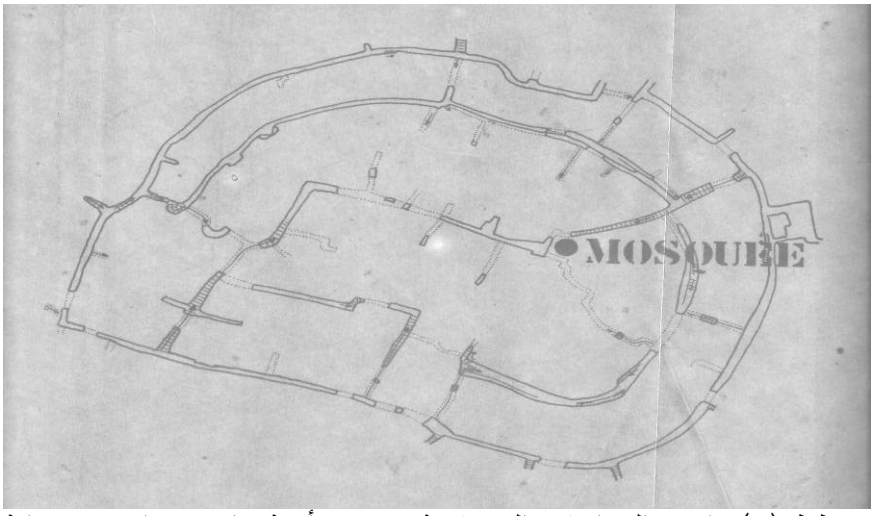

مخطط (١):مكتب الدراسات المعمارية وترميم أبنية وادي مزاب– غرداية

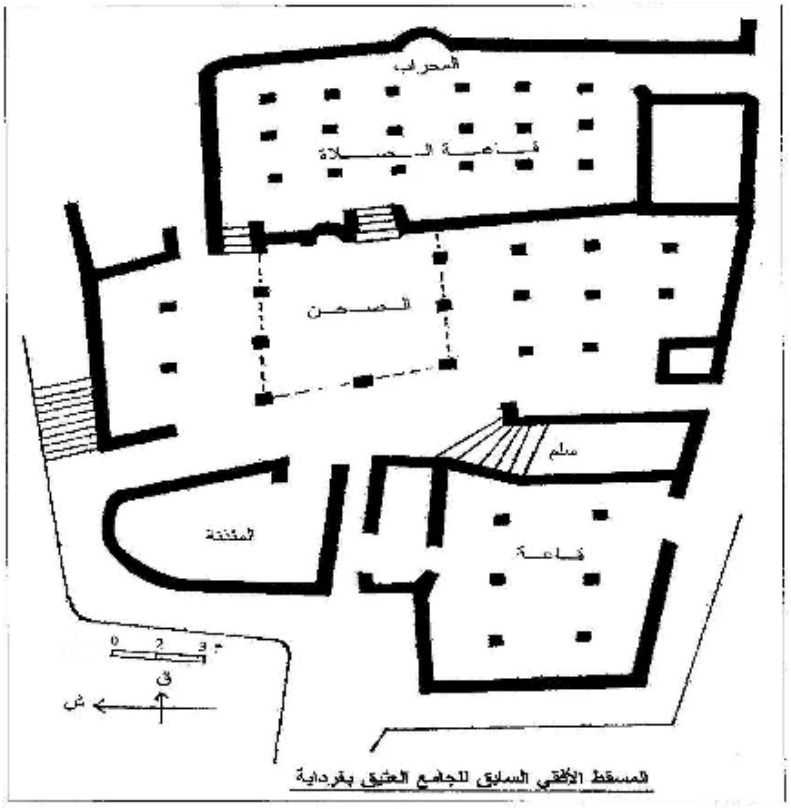

مخطط رقم (٢)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

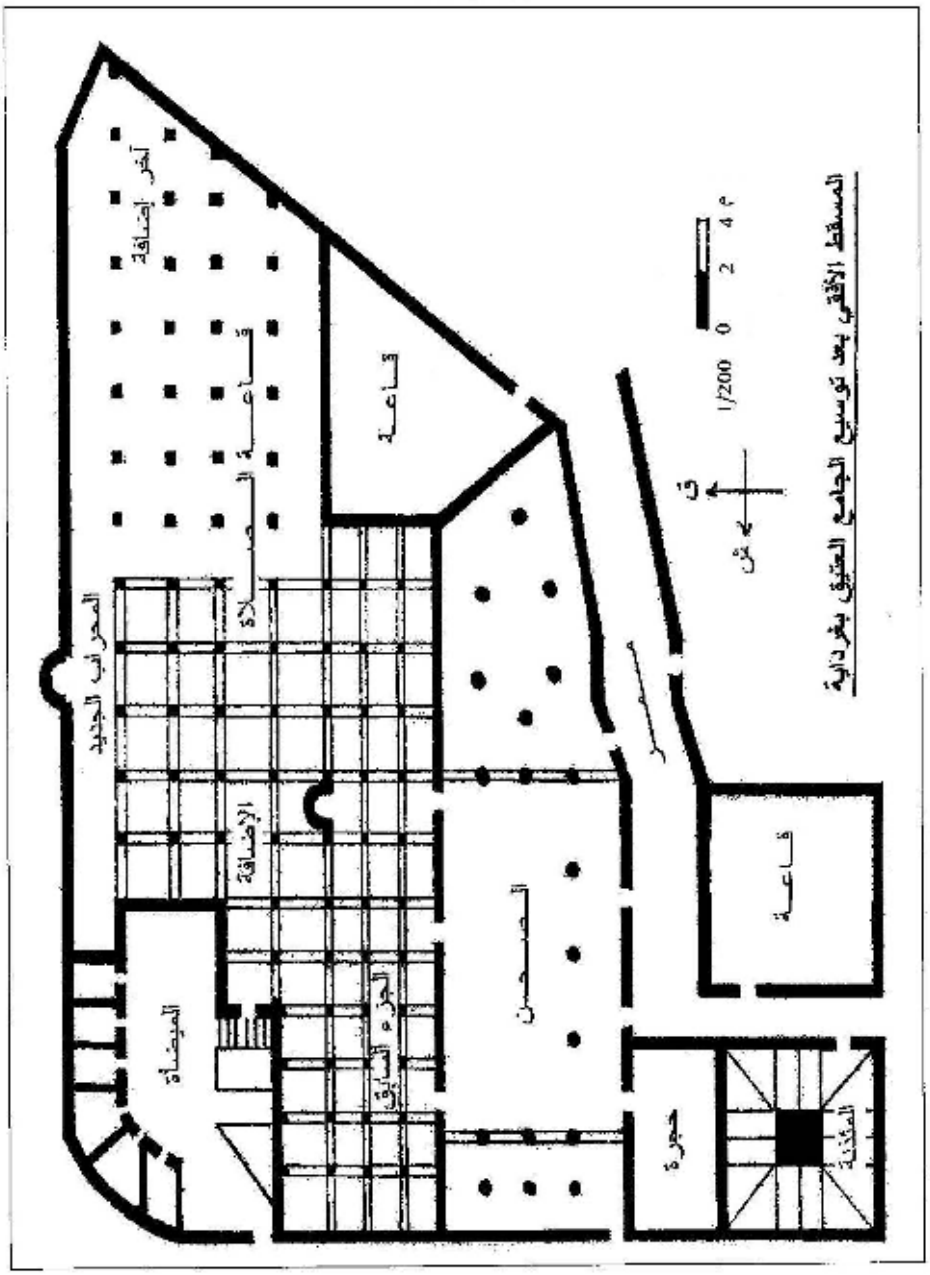

مخطط رقم (٣)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

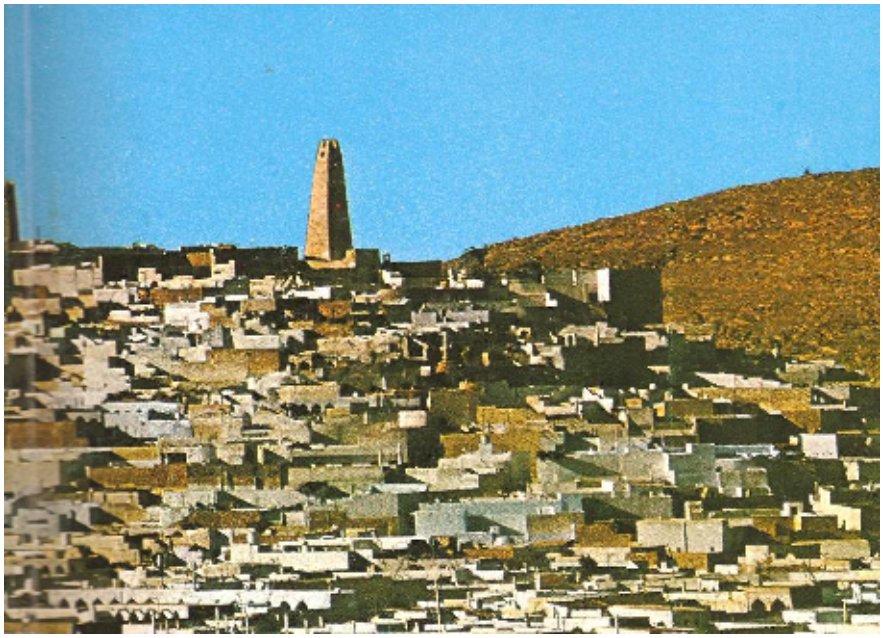

صورة (١): الجامع في أعلى مدينة غرداية

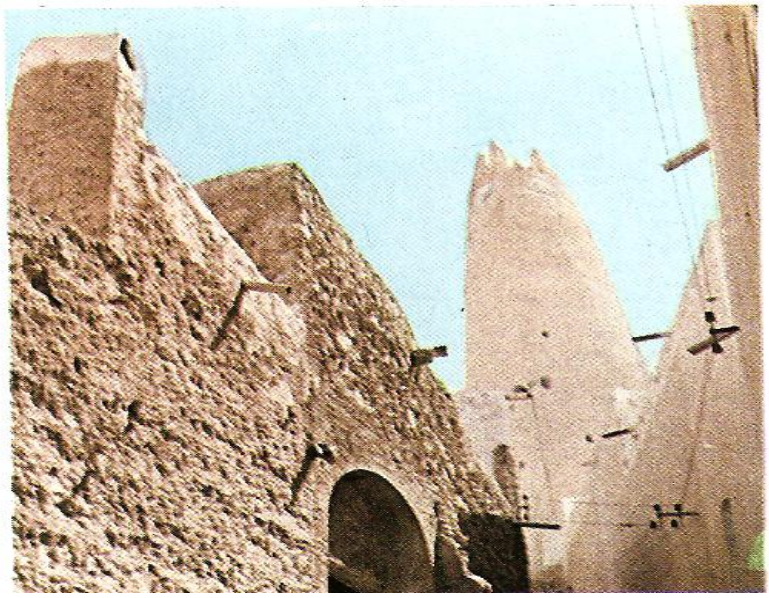

صورة (٢): مظهر الجامع من الخار

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

صورة (٣): دعائم قاعة الصلاة التي تحمل العقود

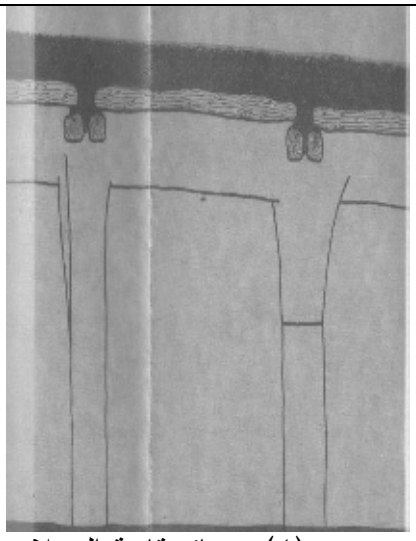

صورة (٤): دعائم قاعة الصلاة التي لا تحمل عقودا

صورة (٥): دعائم الصحن بدون قواعد

صورة (٦): دعائم الصحن بالقواعد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

صورة (٧): بروز الأكتاف على الدعائم

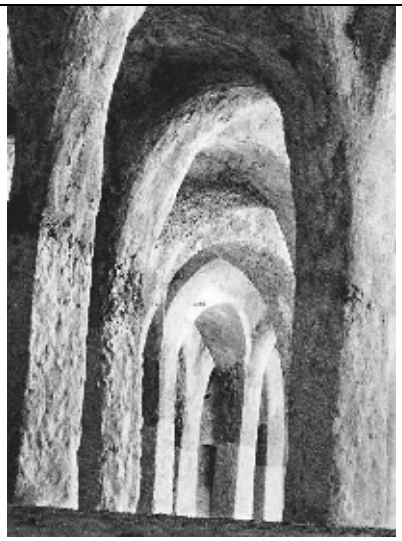

صورة (٨): عقود قاعة الصلاة

صورة (٩): عقود الصحن

صورة (١٠): سقف قاعة الصلاة الخشبي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

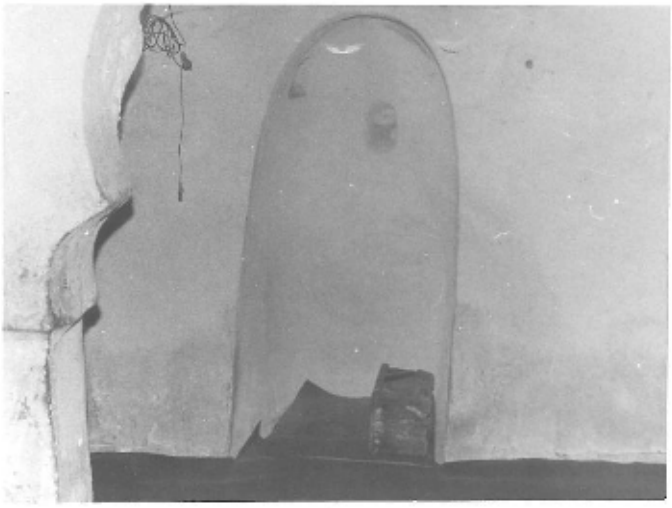

صورة (١١): المحراب السابق

صورة (١٢): المحراب الجديد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

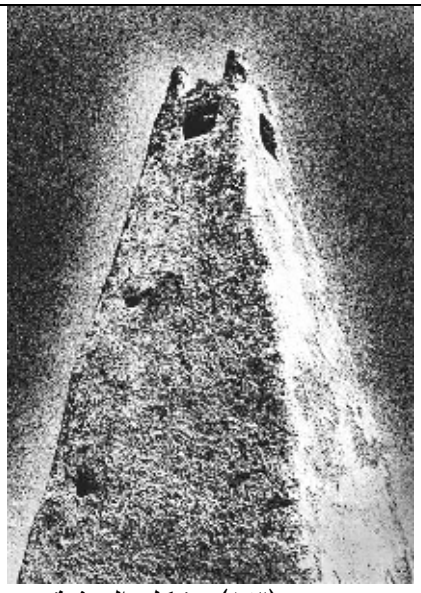

صورة (١٣): شكل المئذنة

صورة (١٤): المئذنة من الخارج

صورة (١٥): أعلى المئذنة

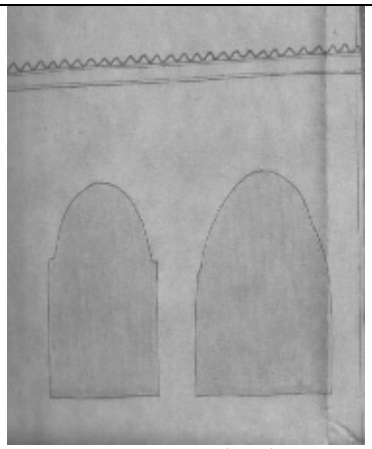

صورة (١٦): حائط الجامع من الخرج

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com